الفصل السابع:

تفسير تخطيطي للظاهرة

أجرينا تحليلاً للإجابات وأقوال الأدباء وتحليل الآثار القصصية ، وقد وقفنا من ذلك كله على نتائج معينة ونريد الآن أن ننظر في هذه النتائج لنكشف عما ورائها ونكون فكرة منظمة عن ظاهرة شيوع القصة القصيرة في تاريخ الأدب المصري المعاصر .

1 – إن الفرد المبدع أو الكاتب واجه الواقع ومتغيراته الاجتماعية والاقتصادية في أواخر الستينيات وهو يسيطر عليه شعور بالاغتراب .

وحجز الزاوية في تفهمنا لشعور الكاتب بالاغتراب هو تتبع مراحله المختلفة ، فضلاً عن تتبع نصوصه الأدبية ذاتها ، والخطوة الأولى في البحث عن أسباب هذا الشعور هي الكشف عن مراحله المختلفة .

ونحن نفترض وجود حالة عند الكاتب تنشأ عند معالجته لنص غامض يمكن أن نسميها حالة انفصال الأنا عن المجال أو العالم الخارجي ، وإذا استطعنا أن نتصور هذه الحالة في مجال سلوك الكاتب يمكن أن نتصور الشعور بعدم الترابط بينه وبين العالم الخارجي بحيث يصبح الموقف عبارة عن أجزاء أو عناصر غير متكاملة أو مترابطة .

وتدل المشاهدة على أن حالة الأنا عند الكاتب تتصدع نتيجة تمزق الأوشاج التي تصله بالإطار العام للمجتمع وعندئذ يتحول الموقف إلى أنا الكاتب في جهة والعالم

الخارجي في جهة أخرى بدلاً من التكيف معه بمعنى ما من المعاني، ومن ثم فإن تغيرات هذا العالم المفاجئة تصيب العلاقة بين الكاتب وبينه بخلل عميق .

في ضوء هذه الملاحظات نتقدم نحو معالجة ظاهرة اغتراب الكاتب بعد أن لاحظنا وجود غموض في نصوصه ، فإذا دققنا النظر في هذه النصوص وجدناها تكشف عن مظاهر العزلة عن الواقع الاجتماعي أو التخلي عنه والمضي قدمًا نحو الانطواء والحياة في الواقع الباطني فهناك على الدوام الإحساس بعبث الوجود الإنساني والشعور بالتمزق وفقدان الألفة مع العالم ، إنه يشعر أنه غير قادر على التواصل معه وأنه يشعر بصورة غير مباشرة. أنه غريب في عالم غريب ، وذهنه غير قادر على التفاعل والتكيف مع هذا العالم ، وغياب التفاعل والتكيف لا يرجع إلى عوامل ذاتية عند الكاتب كنقص في المرونة الذهنية أو غيرها من الأسباب إنما يرجع إلى موانع موضوعية فرضت عليه فرضًا وجعلته يكتشف أنه أمام عالم لا يعرفه وعلى درجة عالية من الغموض .

فالتغيرات المفاجئة التي ظهرت في الواقع الاجتماعي والتاريخي والاقتصادي جعلته واقعًا لم يشعر بالألفة نحوه ، وواقع يتكلم لغة تبدو غريبة عنه لا يعرف دلالاتها ولا يعرف مصادر سياقها ، وهذا الموقف لا يمكن أن يتم دون مشاعر نفسية معينة كالحيرة والتشتت أو التصدع وذلك ما عبر عنه في نصوصه بطرق غير مباشرة ، وفي هذا السياق يتم الاغتراب على المستويين النفسي والفكري في وقت واحد عند النظر إلى الواقع .

وبقدر ما تكون معالم ذلك الواقع غير محددة يتعرض الكاتب للاغتراب الذي يتعارض مع تحقيق التفاعل والتكيف معه ، وتلك هي بؤرة المشكلة النفسية الفكرية التي واجهها الكاتب في أواخر الستينيات والتي يواجهها في أوقات الأزمات الفكرية والاجتماعية. والكتابة الأدبية في هذه اللحظات تعني بالضرورة فقدان الشعور بالألفة مع العالم طالما لا توجد له إطار محدد في بنائه الذهني وتحت وطأة هذا الشعور يبدع صورًا أدبية في آثاره القصصية ويتبنى شكلاً أدبيًا على المستوى غير المشعور به يعبر به عن عدم التآلف ويخرج عن كل ما هو مألوف في تعامله مع النص الأدبي .

لقد أصبح الكاتب يلازمه في أغلب الأحيان هذا الشعور بينما ينعدم هذا الشعور حين كتب نصوص أدبية قبل هذه المرحلة لأن واقع ما قبل هذه المرحلة يتيح له الشعور بالتفاعل والتكيف النفسي والفكري معه بصورة من الصور نتيجة لوجود لغة مشتركة بينه وبين هذا الواقع وهذه اللغة هي صورة الإطار العام للمجتمع في بنائه الذهني والشعور بالانتماء إليه وهذا الشعور يحقق له درجة عالية من التوافق بين عالمه الداخلي وبين هذا الإطار العام .

وعلى الضد من ذلك لا يحقق الواقع الجديد ذلك التواصل لما يتضمنه من تغيرات عديمة الدلالة في بنائه الذهني وإطاره النفسي ، ولعل هذا هو السبب الجوهري في ظهور الأزمة التي نشأت بين الكاتب والواقع الجديد بعد 1967 .

نستطيع القول ببساطة أن العوامل الرئيسية في شعور الكاتب بالاغتراب ترجع إلى عدم تحديد صورة للعالم في بنائه الذهني والنفسي ، وترجع في الوقت نفسه إلى غياب عوامل الترابط وغياب مرونة الذات مع العالم هذا، إلى جانب أن غموض الواقع من شأنه أن يقلل من حظ الكاتب بالشعور بالألفة مع العالم ويجعلنا ندرك بعض الأسباب المهمة في تصدع العلاقة بينهما ، فهناك تحول مفاجئ من عالم يعرفه ويألفه إلى عالم جديد غير مألوف لا يخرج منه إلا بعدة أفكار أو انطباعات غير محددة .

على هذا الأساس نستطيع أن نفهم لماذا انصرف الكاتب عن الواقع الجديد وتغيرت مهمته من إلقاء الضوء على قضاياه إلى تعتيمه وتغميضه في ظل معايير تجعل الاتصال به شيئًا مرهقًا وحزينًا في وقت واحد .

تلك بعض الأسباب التي تؤدي إلى تفكك العلاقة بين الكاتب والعالم الخارجي ، ومن الجلي أن هذه الأسباب ليست من قبيل العوامل المنعزلة بعضها عن بعض لكنها متداخلة بحيث يتضمن بعضها البعض ، وهذه العوامل تبدو على جانب كبير من الأهمية إذ مما ضوئها نستطيع أن نفهم جانبًا مهمًا من جوانب الدلالة السيكولوجية للكاتب والتي فرضت على وجدانه إطار القصة القصيرة ، إنه يشعر بصورة مباشرة بفقدان الذات عندما يحاول غزو الواقع وبفقدان الروابط بين عالمه الداخلي وعدم قدرته على إيجاد إطار ينظم العلاقة بينهما .

ومن ثم فلا سبيل إلى الخروج من الشعور بالاغتراب من وجهة نظر الكاتب إلا بتصوير العالم في شكل لحظات متناثرة لأنه لا يستطيع أن يعطي له صورة كاملة الأبعاد كما يفعل كاتب الرواية ، فهو غير قادر على تصوير الحياة في مجموعها وأن عليه أمام هذا الشعور أن يختار نقطة ما يتناول الحياة من زاويتها لأنه تغلب عليه فرديته وانطباعاته ولا تنشط نفسه لتسجيل التفاصيل ولهذا كله وجد في شكل القصة القصيرة التعبير الكامل عن رؤيته للعالم .

لقد صار الوسيط بينه وبين العالم الخارجي نمطًا معينًا من الإبداع القصصي وهذا الوسيط كان ضرورة ملحة يحتاج إليه ليعيد التوازن بينه وبين واقع جديد في مجتمع تغيرت فيه اتجاهاته الأساسية. لقد تعقد الموقف بينه وبين إبداعه القصصي وأصبح ذا طراز معين من الفن من حيث الاتجاهات النفسية ومن أبرز جوانب هذا الطراز أنه يفقد الميل إلى تصوير العالم بكامل أبعاده المختلفة نتيجة مباشرة لما يواجهه من مواقف نفس اجتماعية جديدة وغامضة .

إن الآثار القصصية لمحفوظ قبل مرحلة أواخر الستينيات كانت " همس الجنون، دنيا الله ، وبعد هذه المرحلة كانت (تحت المظلة ، خمارة القط الأسود) والقارئ يلاحظ وجود اختلاف في الشكل والمضمون ، الكتابات الأولى تعبر عن أزمة الفرد في لحظات مواجهته للعالم، أما كتاباته الثانية فتعبر عن رؤية للعالم تتعلق بفئة معينة تواجه نمطًا من أنماط التصدع في قيمها وفي أيديولوجيتها .

والآثار الأولى يتميز بناؤها بالواقعية الاجتماعية فطريقة السرد ، وتصوير الشخصيات يترابطان مع الواقع الخارجي ، في حين أن الآثار الثانية تبدو مقطوعة الصلة بهذا الواقع أو بعبارة أخرى هناك تحول في البناء القصصي من الواقعية إلى السريالية والرمزية والعبث أو من الواقعية إلى الانطواء والحياة في الواقع الباطني .

هذه التغيرات في عالم الكاتب هي إحدى علامات تمزق الرابطة بينه وبين الواقع وهي مصحوبة بتغيرات في سلوك الكاتب بطريقة لا شعورية كاعتبار النص وسيط يعيد التوازن بينه وبين الواقع الخارجي .

والدليل على ذلك أن معظم الآثار القصصية التي كتبت في أواخر الستينيات تبدو

أمام القارئ كأنها تعبر عن حالة نفسية تتطلب منه في بعض الأحيان الاستعانة بطرائق التحليل النفسي للكشف عن نوع الخبرات اللاشعورية لشخصية الكاتب .

لقد أخفق نقاد الأدب الذين أرادوا أن يفسروا بعض هذه الآثار القصصية نتيجة اعتمادهم على منهج ناقص لم يتجاوز حدود الوصف للأثر القصصي ، كقولهم "إن هذه الأعمال تبدو للقارئ وكأنها أشبه بلغز يطلب الحل " أو كقولهم "إن نجيب محفوظ لم يكتب في تحت المظلة" عملاً معقولاً وإنما الفوضى المخيفة " هذا القول أو ذاك وما شبههما لا يحقق ما ينشده التفسير وربما وجدت هذه الآراء أو غيرها ما ينصفها من النقاد لأنهم يفيدون منها فائدة مباشرة ، أما نحن فلا نجد فيها فائدة تذكر .

ولعل هذا يرجع إلى أن الناقد لم يحاول الكشف عن النظام الذي تتكون منه الظاهرة الأدبية ، إذ لم يحاول فهمها على أنها بنية جزئية تحدث داخل بنية كلية مشروطة بأوضاع اجتماعية وتاريخية معينة تحتم على الباحث النظر إليها في ضوء بعض المفاهيم الشائعة في مجال العلوم الإنسانية من ناحية وفي مجال النقد الأدبي من ناحية أخرى .

إن الكاتب لم يبدأ كتابة النص وهو في حالة الاستعداد للتعبير عن موقف إزاء ما حدث من تغيرات في بنية الواقع ولكنه أراد التعبير عن الانصراف عنه ونستطيع أن نؤكد في ضوء نتائج دراستنا التجريبية للكاتب أن الواقع كان حاضرًا في وعيه ولكن عملية الكتابة يحكمها جانب كبير من عمليات اللا وعي ، فهو أقبل على كتابة النص دون أن يكتشف الاختلاف بين مرحلة ما قبل وما بعد الكتابة ودون أن يكتشف أيضًا كيف أن التعبير عن الواقع الجديد قد نتج عنه تعارض بين الواقع القديم والواقع الجديد أحدث عنده نمطًا من الشعور بتمزق الرابطة بينهما .

إن تجربة الكتابة ذاتها كانت تكشف من زاوية معينة على أنه قد واجه شعور باختلال ميزان المعايير من جهة وصراع بين المعايير الجديدة وبين المعايير القديمة من جهة أخرى وهنا تصبح الأنا عند الكاتب في حالة منفردة وعاجزة عن المضي في اتجاه محدد داخل الإطار العام للمجتمع .

ونحن نفترض أن هذه الحالة يمكن أن تكون حالة مؤقتة لا تلبث أن تنتهي وتبدأ علامات تشير إلى الرغبة في الاندماج مع الواقع الجديد والاندماج الذي تعنيه هنا هو فهم الواقع وتفسيره وفهم قوانينه الجديدة ومساراته المختلفة والتفاعل والتكيف معه.

ولا يعني التفاعل والتكيف هنا قبول الكاتب للواقع كما هو أو تغير درجة مرونته الفكرية والنفسية حسب مقتضيات التغير لأن ذلك يحدث عادة للفرد غير المبدع أما بالنسبة للكاتب فإن التفاعل والتكيف يعني بالنسبة له فهم طبيعة التغيرات وإعطائها دلالات فكرية وأيديولوجية واجتماعية معينة من أجل اتخاذ موقف محدد منها .

والواقع أن الكاتب يواجه عادة المواقف النفس – اجتماعية الجديدة في معظم لحظات حياته الأدبية دون أن يسعفه إطاره الفكري والنفسي في اتخاذ موقف محدد أو رؤية محددة فيضطر أن يخطو خطوات جديدة في سبل مجهولة ، ويدخل في غمار مغامرة مع الواقع الجديد .

ومن خلال المراحل والمواقف التي نتصور أن الكاتب واجهها برز مع الوقت شعوره بالفوارق بين الواقع الجديد والواقع القديم ، وكلما زاد الشعور بالفوارق بين الواقعين قل إندماجه في الواقع الجديد وقلت درجة تفاعله معه ، وهنا تصبح العلاقة بين الكاتب ونصه علاقة غامضة نتيجة لما يلقاه من اتجاهات غامضة .

لقد انقسمت العلاقة بين الكاتب والواقع إلى عالمين متباعدين ذلك لوجود هوة فاصلة بين عالم الكاتب الداخلي وعالم الواقع الخارجي وهذا أدى إلى درجة عالية من التباين في تحديد طبيعة النص .

إن غياب الرؤية الواضحة للواقع الخارجي أدى إلى غموض في مضمون البناء الفني حال دون تحقيق التفاعل المنشود مع النص ، فالواقع كالنص غير واضح المعالم والدلالة وكلاهما يكشفان عن تغير لم يألفه الكاتب ، هناك تجانس بين مضمون وبناء النص وبين مضمون وبناء العالم الخارجي فإنهما متفقان معًا على حقيقة دينامية واحدة هي التغير والغموض .

لقد حاول الكاتب ردم الهوة الفاصلة بينه وبين الواقع الخارجي في شكل نص أدبي لا ينتمي إلى الاتجاه الذي كان يتبناه قبل نهاية الستينيات ، ولا ينتمي في الوقت نفسه إلى الواقع الجديد ليتخلص من صدمة الشعور بالإحباط والعزلة التي أحس بها بعد ظهور آثار الخامس من يونيو عام 1967 . ومحاولة الكاتب إبداع نصوص أدبية معينة بعد هذا التاريخ كان مظهرًا من مظاهر اندفاع الأنا المغتربة عنده نحو البحث عن وسائل سلوكية فنية تسعى نحو تحقيق شكل من أشكال تحقيق نمط معين من أنماط التوازن النفسي الذي يؤدي بطريقة غير مباشرة إلى التفاعل مع الواقع الخارجي بمعنى ما من المعاني.

ولكي نفهم حالة الكاتب يجب أن نفهمها من حيث هي نموذج لظاهرة الشعور بالاغتراب ، وهذا الشعور يحدث في بنية اجتماعية لها ظروف حضارية وتاريخية معينة تسهم إلى حد بعيد في تشكيل بنائه الفكري والنفسي ، وتتألف من مناطق شديدة المقاومة للتغيرات ومناطق أخرى سريعة التأثر بما ينتاب حياته من تغيرات جديدة ، واتجاهه وموقفه من هذه التغيرات المفاجئة ظهر في شكل تعبير فني مقتصد يميل إلى تصوير لحظات تعبر عن اتجاه الأنا نحو الانطواء أو الفرار من الواقع الجديد .

إن التغيرات الجديدة لم تكن في الواقع مجرد تغيرات اجتماعية أو اقتصادية في جانب من جوانب المجتمع بل كانت معالم اتجاهات نحو الحياة كلها ، تتعارض وتتضارب بشكل ينم عن حدوث تخلخل في البناء الحضاري وعلى انخفاض درجة تكامله ومن أوضح آثار ذلك خروج أبرز أدباء مصر في هذه المرحلة عن اتجاهاتهم الواقعية المعتادة (أمثال نجيب محفوظ ويوسف إدريس) وتبنيهم للسريالية والرمزية والعبث .

ودلالة تغير هذه الاتجاهات – من وجهة نظرنا – ترجع إلى فقد الموقف المتوازن بين الكاتب وبين الواقع الجديد. فالكاتب في جهة والعالم في جهة أخرى ودوام هذا الموقف غير طبيعي أو منطقي، إذ لابد من وجود حالة تواصل فكري يضم الكاتب والعالم في وقت واحد ، لتتاح له فرصة التفاعل والتكيف معه لا باعتباره نموذجًا لواقع غريب وإنما باعتباره نموذجًا لواقع مألوف يعرف مقوماته الحضارية والثقافية

بمعنى ما من المعاني . وهو الشيء الذي لم يحدث في المرحلة التي تلت الخامس من يونيو 1967 ولم نشاهده في النصوص الأدبية التي برزت في هذه الفترة .

إن محاولة الاتصال بالواقع الجديد رغم ما فيه من غرابة وتعقيد وغموض قد تحققت فعلاً بطريقة غير مباشرة في شكل إبداع نصوص أدبية معنية ذات لغة ودلالة معينة . ودفع هذه النصوص إلى نشرها على القارئ في هذه الأزمة الحضارية يتضمن دعوة ذات اتجاه معين سواء كانت هذه النصوص واقعية أم عبثية أم سريالية . بهذا المعنى تكون تلك النصوص بمثابة جسر يحاول الاتصال بالواقع الجديد ، ولكنها في الوقت نفسه بمثابة دعوة غير مباشرة إلى أبناء المجتمع ، مؤداها رفض هذا الواقع بالانصراف عنه .

وإبداع هذه النصوص القصصية في ذاتها تعد حركة ذات دلالة دينامية لمحاولة الأنا عند الكاتب للسعي نحو إيجاد حلقة تربطه بعالم الواقع الجديد ، وهذا السعي كان بارزًا عنده لكنه لم يكن على المستوى الشعوري .

فهناك ظروف معينة تبين لنا متى يرتفع هذا السعي إلى المستوى الشعوري . وعدم ظهور التعبير اللفظي في التحقيق التجريبي الذي أجريناه على الكاتب لا يعني عدم وجود هذا السعي لتحقيق نمط من أنماط الاندماج السلبي في بنية الواقع .

فثمة مظاهر سلوكية أخرى يمكن الاستدلال بها لتأكيد ذلك ألا وهي دفع الكاتب في هذه المرحلة بأكثر من مجموعة قصصية للنشر وبخاصة نجيب محفوظ ويوسف إدريس وهذه المظاهر أعني نشاط الفرد المبدع بالنسبة لكمية إنتاجه تعد حركة ذات دلالة في سعي الأنا نحو التواصل مع الواقع .

إن الكاتب في هذه المرحلة برزت لديه حاجة على نحو مشعور بها للخروج من حالة العزلة أو الانطواء وتحقيق نمط من أنماط التواصل السلبي مع الواقع . وقد برزت لديه هذه الحاجة كقوة دافعة غير مباشرة في مجاله النفسي ، يقول نجيب محفوظ : "كنت أشعر أنني منفعل باستمرار وليس لدي موضوع محدد . لعل همي الأول كان التعبير عن شعوري المضطرب" .

نظراً لأن أي تصدع يصيب العلاقة بين الأنا عند الكاتب وبين الوسط الاجتماعي العام يصيب عالمه الداخلي بنوع من التأزم ولهذا جاءت هذه الحاجة بشيء من الضغط عليه وقد برزت مظاهرها في لجوئه إلى كتابة نصوص قصصية معينة أغلبها تدور حول أحداث لا تنتمي إلى زمان أو مكان معين كما شاهدنا في أقاصيص تحت المظلة والجريمة وخمارة القط الأسود لنجيب محفوظ . وفي العملية الكبرى ، وبيت من لحم والعصفور والسلك ليوسف إدريس وهذا الأسلوب الفني الجديد ترك جانبًا الواقعية النقدية أو الاجتماعية والاتجاه نحو السريالية والعبث شاهدًا على أن العالم النفسي للكاتب ليس في حالة توافق نسبي مع الواقع أو مع الإطار العام للمجتمع .

والواقع أن ظاهرة شعور الكاتب بالاغتراب في العالم الخارجي ظاهرة نفس – اجتماعية تندفع إلى الظهور بمجرد وجود جماعة ينتمي إليها الكاتب وهذه الجماعة تواجه تصدعًا في العلاقة بينها وبين المجتمع من حيث القيم والمعايير والأفكار نتيجة تغيرات مفاجئة غير محتملة طرأت على البناء والمضمون الاجتماعي جعلت الواقع أو العالم الخارجي غير العالم الذي كان يعرفه ويتصوره في بنائه الذهني من قبل .

وعلى الرغم من أن الشعور بالاغتراب يجعل أنا الكاتب أنا عاجزة عن التكيف مع العالم أو عاجزة عن فهم عناصره أو معطياته الجديدة . رغم ذلك فإنه يحاول بمعنى ما أن يقضي على هذا الشعور بواسطة اللغة الأدبية أو الإبداع غير الموجه ، الذي ربما يحمل في ثناياه أفكار أيدلوجية بصورة غير مباشرة بمعنى ما من المعاني. ليحاول إعادة تنظيم العلاقة بينه وبين العالم بعد التغيرات التي طرأت عليه .

والذي يهمنا من هذه الحقائق النفس – أدبية هو إلقاء الضوء على سمات مرحلة التغيرات والتركيز على توجيه الشعور نحو نمط معين من الأجناس الأدبية والعلاقة بين هذه التغيرات وبين الخصائص النفسية وبين طبيعة هذا الجنس الأدبي .

ومن خلال هذه السمات نستطيع أن نتبين المناخ العام الذي ظهرت فيه حالة الاغتراب عند الكاتب وكيف أن الموقف النفس – اجتماعي وطبيعة البيئة الحضارية التي أحاطت به أسهمت وتساهم في تنميط هذا الشعور الذي لا ينفرد به الكاتب فقط بل تبدو بعض مظاهره داخل المجتمع نفسه .

ويمكن أن نلمسه في شعور عدد غير قليل من المثقفين بتدهور بعض القيم والمعايير، وفي تفتت بنية الطبقة التي ينتمي إليها الكاتب ، وفي الشعور بطمس جوهر الذات وبعدها التاريخي والحضاري . وفي غياب الشخصيات المرتبطة بالزمان والمكان في الآثار القصصية التي برزت في أواخر الستينيات .

إن التواصل بين الفرد المبدع والعالم لا يمكن تحقيقه إلا إذا قضينا على الشعور بالاغتراب وفق معيار موضوعية . أهمها أن يتولد بين الفرد والعالم شعور بالوحدة والألفة والتضامن ذلك الشعور يؤدي إلى التشابه في أنماط العمليات النفسية والفكرية بين الفرد والمجتمع .

إذ إن كل ما يؤدي إلى التشابه بين عالم الكاتب وعالم الواقع يؤدي إلى ظهور نمط من التواصل أو الترابط ويؤدي إلى تقوية هذا الشعور فيتخلص من شعوره بعزلته وانفراده في مواجهته الغرابة والغموض اللتين وجدتا في العالم .

معنى ذلك أنه كلما قلت الغرابة والغموض في عناصر الواقع الخارجي وسيطرت عليه دلالات واضحة أو ذات معنى في البناء الذهني للكاتب ، ازداد شعوره بتواصله مع العالم . فالعلاقة بين الكاتب والواقع الخارجي التي تتميز بشيء من الوضوح والاستقرار تزداد قدرة على الاستقرار والاتزان النسبي نتيجة لما يلقاه الكاتب من خبرات فكرية متشابهة بين بنائه النفسي والفكري وبين بناء الواقع .

ولكن المشاهد في الواقع أن التغيرات التي خلقتها الحرب كانت تغيرات عميقة وغير محتملة عن التغيرات المألوفة والمتوقعة في المرحلة السابقة على الحرب . وهذا الاختلاف أدى إلى درجة عالية من التباين في أنماط البناء النفسي والفكري عند الفرد المبدع . وأنماط البناء النفسي والفكري ومضمونه ما هما إلا نتاج تاريخي لمواقف الحياة التي يجتازها حين يواجه العالم الخارجي .

ونحن نفترض أن التغيرات العميقة المفاجئة أو غير المحتملة في البناء الاجتماعي وفي مضمونه تخلق هوة فاصلة بين نمط البناء النفسي لدى الكاتب وبين نمط البناء الاجتماعي تؤدي إلى ظهور تحطم في الإطار الذي يجمع بين عالم الكاتب وبين عالم المجتمع يصاحبها شعور بالاغتراب يفرض على الكاتب الفردية والنزوع نحو تصوير

انطباعات جزئية أو غير كلية عن الحياة من زاوية معينة تجد في التعبير القصير وسيلة أو أداة فعالة في دفع هذا الشعور عن الكاتب ليقاوم العزلة والانطواء عن المجتمع .

إن التغيرات التي أعقبت الخامس من يونيو عام 1967 جعلت الكاتب ينكمش في نفسه ويتجه نحو السريالية والعبث وكل الإجابات التي بين أيدينا المستخلصة من التحقيق التجريبي على الأدباء تكشف عن هذه التغيرات التي أثرت على الكاتب على المستوى النفسي والفني . فإذا أردنا أن نحدد هذا التأثير قلنا أنه بارز في البناء الفني وفي تحويل الاتجاه الفني أو الأدبي عند الكاتب .

ومما لا شك فيه أن الشعور بالاغتراب أو بعدم التوازن بين الكاتب والعالم الخارجي هو الذي فرض عليه جنسًا أدبيًا معينًا تكيف مع أعماق الأنا عند الكاتب وظهر أثره في كل مظاهر الاستجابة لمثل هذا الموقف .ومن المحقق أن هزيمة 5 يونيو 1967 تركت لدى الفرد المبدع أثراً عميقاً بمعنى أنها مست أعماقاً في الأنا لا يمسها حادث اجتماعي عابر . ويمكن أن يقال أن أثر هذا الحادث وقع عند نجيب محفوظ هذا الموقع فترك لديه آثارًا عميقة في الأنا . يعبر عنها بقوله : "كنت أشعر أنني منفعل باستمرار وليس لدي موضوع محدد" في ظل هذا الوضع لا يمكن أن يستقر الأنا عند الكاتب لأن الاستقرار لا يتم إلا إذا كان الإطار العام للمجتمع واضح المعالم وواضح الصلات .

وما دام هذا الإطار العام قد اختلت جوانبه فقد اختل توازنه وفقد الأنا عند الكاتب استقراره فإذا به ينتج نمطًا من الأدب لإعادة التوازن وذلك بخلق صور وتعابير مختلفة بطريقة شعورية أو غير شعورية تعمل على إقامة علاقة جديدة بينه وبين الواقع المتغير.

لقد اشتد تقلقل الأنا عند الكاتب بتقلقل صورة الواقع الخارجي اختفت صورة المجتمع السابقة وحلت محلها صورة أخرى مفاجأة أملتها عليه ديناميات الموقف الجديد جعلت الكاتب يعالج قبل أواخر الستينيات القصة القصيرة مستعينًا في ذلك بالاتجاه الواقعي النقدي أو الاجتماعي غير أنه شاهد تحولات غير محتملة في العالم

الذي يعيشه فإذا به يتحول عن هـذا الاتجـاه ويتبنـى الاتجـاه الرمـزي أو العبثـي أو السريالي ، ففي هذه اللحظة تغيرت دلالة الواقع فبعد أن كان الاتجاه الأول هـو الـذي يعبر عن نظرته للعالم أصبح الاتجاه الثاني هو الاتجاه الأمثل للتعبير عن هذه النظرة .

وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن اختلال البناء الاجتماعي يمارس ضـغطـه علـى الفرد المبدع أو الكاتب باعتبار أنه القوى الفعالة في التوازن النفسي الاجتماعي .

إن موقف الفرد المبدع أو الكاتب في مرحلة أواخـر السـتينيات كـان قائمـاً علـى أساس وجود تصدع في العلاقة بين الأنا والمجتمع باعتبار أن الإطار العام الذي كـان ينظم هذه العلاقة قد تحطم بصورة بارزة مما أدى إلى شعور الكاتب بالاغتراب ، ذلك الشعور الذي يجعل العالم النفسي له لا يستجيب إلا مع الشكل الأدبـي الـذي يصـور الحياة من زاوية معينة أو لحظة من لحظات التأزم الفردي .

وعلى هذا الأساس تظهر الصلة بين أزمة الفرد المبدع وأزمة المجتمع ، وعلى هذا الأساس أيضًا نقيم رأينا في الصلة بين شيوع شـكل القصـة القصـيرة وبيـن أزمـة الكاتب وأزمة المجتمع في تاريخ الثقافة المصرية المعاصرة . ومن ثم فكلما ألح إطـار القصة القصيرة على وجدان الأدباء بعامة كما في حالتنـا هـذه ، كـان دليـلاً علـى أن الفرد المبدع يبعد عن المجتمع وينكمش في نفسه ، وكـان الواقـع الخـارجي يمضـي نحو التغير السريع أو غير المحتمل ، ولا تتحطم هذه القاعدة إلا عندما يكـون الكـاتب من اتباع السريالية أو الرمزية والعبث قبل مرحلة التغـيرات الاجتماعيـة السـريعة أو غير المحتملة وحتى هنا لا يمكن أن يتحقق للكاتب العزلـة عـن المؤثـرات الحضاريـة الجديدة لأن البناء الفني يعبر عن شـخصية الكـاتب مـن ناحيـة وعـن طبيعـة البنـاء الاجتماعي من ناحية أخرى ويبدو كواقعة لها دلالة موضوعية تتمثل في وجود وحدة بين الفرد والمجتمع وهذه الوحدة تتم بطريقة ديالكتيكية في التاريخ .

ولقد بينّا في التحقيق التجريبي على الأدباء كيف أن تحـولات الواقـع الاجتمـاعي والتاريخي في أواخر الستينيات كانت ذات آثار عميقـة علـى أنـا المبـدع وعلـى هـذا الأساس نقول بأن هناك صلة قوية بين الأدب والمجتمع وأن هذه الصلة تـأخذ طـرق وأساليب مباشرة وغير مباشرة في وقت واحد .

ولقد قدمنا معالجتنا للموضوع على أساس تجريبي . فبدأنا بالاستخبار الذي وضعناه ، وحللنا الإجابات الواردة من الأدباء ، واستخدمنا مبدئيًا أهم ما تدل عليه هذه الإجابة فيما يتعلق بظاهرة شيوع شكل القصة القصيرة ، واكتفينا بذلك مؤقتاً . وانتقلنا إلى تحليل الآثار القصصية . فقدمنا تحليلاً لنصوص قصصية لنجيب محفوظ ويوسف إدريس .

بعد ذلك عقدنا فصلاً خاصًا حاولنا أن نضع فيه تخطيط أولى لتفسير ظاهرة سيطرة جنس القصة القصيرة على ميدان الإبداع الأدبي في تاريخ الثقافة المصرية في أواخر الستينيات على أساس ما اهتدينا إليه من ملاحظات تجريبية متعاونة مع تحليل الآثار القصصية وقد راعينا عند تحليل هذه الآثار أن نعتمد على مفاهيم النقد الأدبي ومناهجه فضلاً عن المنهج التجريبي وبعض مفاهيم العلوم الإنسانية بعامة وعلم النفس والاجتماع بخاصة.

مراجع الفصل السابع

(1) نجيب محفوظ، "دنيا الله"، القاهرة، 1963.

(2) يوسف إدريس "النداهة"، القاهرة، 1968.

(3) غالي شكري، "المنتمي في أدب نجيب محفوظ"، القاهرة، 1970.

(4) شكري عياد، "الرؤة المقيدة، القاهرة، 1970.

(5) سمير حجازي، "الإشكال المنهجي لدراسة الأدب العربي المعاصر"، مجلة الآداب، بيروت، عددى 1، 2، 1981.

(6) chamber de low, culture et pouvoir, Paris, 1975.